وحدة الوجود والاعتقاد بالخالق

خلاف بين هيكل ولودج

بقلم الأستاذ محمد فريد وجدى

الأستاذ أرنست هيكل الألمانى عالم البيولوجى كبير، كان مدرساً لهذا العلم بجامعة فينا بألمانيا، وهو الذى أدخل مذهب دارون إلى هذه المملكة، ودافع عنه بهمة عالية، وفوق صفته العلمية هذه، له مباحث فلسفية جذابة، جعلت لكتبه ميزة خاصة فى التأثير على العقول، وقد تولت شركة طباعة نشر كتبه بقيمة زهيدة لتسرى فى الجماهير، باعتبار أنها تجديد فلسفى يجب أن تشيع لتقويم نظرهم فى الحياة والعقائد، وهو واضع مذهب وحدة الوجود الطبيعى، وقد نشره باسم المونيسم Monisme ، فذاع بين العلماء والقارئين ذيوعاً عظيماً، ووجد مؤيدين وناقدين من جميع الصيغ.

الرأى الأساسى لهذا المذهب، ينحصر فى أن الطبيعة المادية والخالق شىء واحد، قال هيكل نفسه عنه فى كتابه (سر الوجود):

« مذهب وحدة الوجود معناه: أن الله والعالم شىء واحد وذات واحدة. بهذا تتوحد العقيدة بالله والطبيعة والهيولى. فالله وهو الروح المتصل بالعالم هو الطبيعة ذاتها، يعمل فى الهيولى كقوة. هذا هو الرأى الوحيد الذى يمكن أن يوافق القانون الطبيعى الأعلى، وهو ناموس الهيولى؛ فمذهب وحدة الوجود هو بالضرورة وجهة العلوم الطبيعية الحاضرة ».

نقول: وهذا المذهب ليس بجديد، فقد قال به الهنديون منذ نحو خمسة آلاف سنة، وسرى منهم إلى المسلمين فقال به جمهور من الصوفية، وما زال ماثلا فى الأذهان العالمية تحت اسم Panthéisme ، وله أنصار كثيرون، بل منهم من قال: إن الاعتقاد بالخالق مستحيل إلا على هذا الأسلوب.

ولكن الأستاذ أزليفر لودج، رئيس جامعة برمنجهام والملقب بدارون علم الطبيعة، عاب على الأستاذ هيكل تدخله فى الفلسفة، وقال: إنه يجب أن يكون بين العلم والفلسفة حجاب، « فلو اخترق رجال العلم هذا الحجاب، فانهم يضيعون كل احتراس ويسيرون مطلقين من كل

قيد على ، فيغالون فى مزاعمهم دون أن يخشوا رقيباً عليهم ، ويبتدعون الافتراضات التصورية ويدعونها آراء ، ويكون تحقيقها غير منتج بل مستحيلا » .

ثم قال : « فالأستاذ هيكل يعطينا المثال المؤثر للعالم الذى يجرى حراً طليقاً وهو داخل مجال الفلسفة ، فان هذا العالم البيولوجى بحث - فى كتابه الذى نشره للعامة وسماه (أسرار الوجود) - مسألة الوجود فى مجموعها من أول علم الطبيعة إلى مقارنة الديانات ، ومن المشاهدات التشريحية إلى حرية الارادة ، ومن حيوية الخلايا إلى صفات الله ؛ وقد عالج كل هذه المواضيع بعلم مهما كان بعيد المدى فليس بما يعلو عن القدرة البشرية . ولقد أظهر مزايا كتابية وانتقادية عظيمة ، فاكتسب هذا الكتاب فى انجلترا قراء كثيرين بفضل الترجمة البديعة التى عملها مستر (ماك كاب)

« يتكلم الأستاذ هيكل عن المونيسم كأنه من المخترعات الحديثة ، وهو فى الواقع عدة فروع مذهبية ، ولكنها على أية حال أصلها متوغل فى القدم ، أقدم من أفلاطون ، بل كقدم بارمينيد » .

على أن الأستاذ «لودج» لا ينكر مبدأ وحدة الوجود نفسه ، ولكن ينكر أن مذهب هيكل الذى نشره هو المذهب المنتظر فقال:

«يوجد مذهب آخر أو مجموع من مذاهب، كان لها شأن يذكر عند بعض الطبيعيين الأقدمين ولا يزال له شأن عند البيولوجيين (علماء الحياة) المعاصرين، فمندهم أن الروح والعقل والوجدان ماهى إلا ثمرات تبعية، وإن شئت فقل ظلالا أو ظواهر أو حلية لحقيقة أصلية تشمل مايسميه بعضهم بالمادة، وبعضهم بالقوة، وبعضهم بالهيولى، من هذه الطائفة نجد العالم (تندل) أو بالأقل (تندل) فى خطبته التى خطبها فى بلفاست ، ونجد أيضاً هيكل وبيولوجيين آخرين » .

ثم قال الأستاذ لودج :

« كل الفلاسفة حاولوا هذا التوحيد (المونيسم) سواء أكانت وظيفتهم الفلسفة أم كانوا متبرعين فيها . فالمسألة الوحيدة المطروحة للبحث هى معرفة نوع المونيسم الذى يميلون إليه، وأى جنس من الحل يمكنهم تقديمه لنا على مسألة الكون ، وما عساه أن يهدوه إلينا من المدركات البسيطة المفهومة المقنعة ، مما يجوز اعتباره كمذهب للوجود »

« هذا المذهب ليس بجديد ولا يخلو من شىء من الحقيقة ؛ وسيأتى يوم يمكن فيه تخيل وتدويم مذهب من المونيسم يشمل هذه الحقائق، وسيظهر المذهب الذى يقرره الأستاذ هيكل فى نظر الفلاسفة ساذجاً بالياً ، والعلماء يعتبرونه الآن عارياً من الأدلة وافتراضياً محضاً فى بعض جهاته ، وفى الجملة قليل الاقناع » .

« إن المحاولات التى تبذل لوجدان مذهب يشمل كل شيء ويكون فلسفياً وعلمياً معاً يجب أن تنبه منا عاطفة الحذر ، ويجب على الخصوص عدم الاعتماد على المظهر السلبي . إن المستندات الحسية للمشاهدات أو لتنظيمها يمكن أن تكون حقة ، ويجب أن تقابل بالترحاب ، ولكن يجب ألا تقبل إلا بكثير من الحذر الانتقادات السلبية والهادمة ، وكل ما يبعد أو يرفض جزءاً من التجارب الانسانية (يريد المباحث الروحانية التى هو من أكبر زعمائها) بحجة عدم اتفاقها ومذهب غير ناضج مهما كان موحداً للوجود أو غيره ».

فيرى القارىء مما تقدم أن الأستاذ أوليفر لودج يعترف بأن المذهب العلمى سيكون غداً قائماً على وحدة الوجود بمظهريه : المادى ، والروحانى ، فكأنه يأبى على المذهب الذى نشره هيكل أن يكون هو ذلك المذهب المنتظر .

ولقد صدق الأستاذ لودج فى قوله هذا ، ولا يوجد فى أهل العلم من ينكره ؛ لأن الوجود على تعدد عوالمه ، وتكثر وجوده ، قائم على حقيقة واحدة جامعة لكل مافيه فى نطاق واحد ، ولا يعقل أن يكون غير ذلك بوجه من الوجوه ؛ فالمدار أن يقوم مذهب ببيان هذه الحقيقة على أساس علمى وفلسفى معاً ؛ فالمسألة مسألة وقت ، وكل آت قريب .

محمد فريد وجدى

فى المنطق

[بقية المنشور على الصفحة رقم ٣٧]

وعليه فجميع العمليات المنطقية الفكرية لها صلة ببعضها ، وهذه الصلة تنحصر فى أنها جميعها أجزاء أو عمليات منسوبة لعقل واحد ، أو ذكاء واحد ، أو ان صبغتها واحدة من حيث تبعيتها إلى عقل واحد ، ولكن هذه العمليات المنطقية الفكرية من جهة أخرى تختلف عن بعضها من حيث دلالتها على التطورات المختلفة والخطوات التى تتسلسل حال اشتغال العقل بتحصيل المعلومات الصحيحة ، وعليه فوظيفة المنطق أن يبين لنا حركة التفكير ومراتب العمليات الفكرية ، أو بطريقة أخرى : يجب على علم المنطق أن يعد نظاماً شاملا ، يفسر بواسطته الطريقة التى يعمل الفكر بمقتضاها ويوضح الدور الذى تلعبه كل من عمليات التعقل والحكم والاستدلال الخ .

نظلله الحكيم سعيد